قد بدأ علم التفسير بعدة مراحل في نشأتهُ وتطورهُ وهي كالتالي :

١-علم التفسير في عصر النبيّ والصحابة:

بدأ التفسير في عهد النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم-؛ إذ كان القرآن ينزل على النبيّ -عليه الصلاة والسلام- مُفرَّقاً حسب الحوادث، والوقائع، وكان -عليه الصلاة والسلام- يُفسّر للصحابة، ويُبيّن لهم ما أُشكِل عليهم من معاني الآيات المُنزَلة؛ فهو أعلم الناس بالقرآن الكريم، ومعانيه، وهو المصدر الأوّل في تفسير القرآن على الإطلاق، ومن أمثلة تفسيره -ﷺ- آياتِ القرآن، تفسيرُه قولَ الله ﷻ : **((إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ))**.

وقد أخذ بعض الصحابة -ﷺ- العلم بالقرآن الكريم، وببيان معانيه وألفاظه عن النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-؛ فكان منهم ستّة عشر صحابيّاً من أئمّة التفسير، ومن بينهم عائشة- رضي الله عنها- ومنهم من كانت آراؤه في التفسير يسيرة، ولم يرِد عنه سوى القليل، ومنهم من أكثر منه، وأصبح عَلَماً فيه؛ فأكثروا من الرواية عن النبيّ -ﷺ-، واجتهدوا في تفسير ما لم يَرد فيه شيء عنه -عليه الصلاة والسلام-، وهم أربعة: عبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب -ﷺأجمعين-، ومع توسُّع المسلمين في الأمصار، وانتشار الصحابة، نشأت في كلّ بلد ذهبوا إليها مدرسة للتفسير؛ فكان ابن عبّاس في مكّة، وأبيُّ بن كعب في المدينة، وعبدالله بن مسعود في الكوفة، ومن هنا انتشر علم التفسير من الصحابة إلى تابعيهم، ومنهم إلى تابعيهم، وهكذا، وكانت الوسيلة الأولى لحِفظ هذا العلم حِفظه في الصدور؛ بوصفها الوسيلة الأهمّ؛ لحِفظ العِلم.

وكان الصحابة -ﷺ- قليلي الاختلاف فيما يخصّ فَهم معاني القرآن، وتلك إحدى مُميّزات التفسير في عصرهم، كما أنّهم كانوا يكتَفون في تفسير الآية بالمعنى الإجماليّ لها، كما أنّ الخلاف المَذهبي حول الآيات كان قليلاً، وكان التفسير يأخذ شكل رواية الحديث، ولم يُدوّن في عصرهم، وإنّما كان يُحفَظ سماعاً، وكانوا ﷺ قليلي الأخذ من أهل الكتاب.

٢- التفسير في عصر التابعين وما بعد التابعين:

يُعَدّ عصر الصحابة المرحلة الأولى من مراحل التفسير، وقد بدأت مع انتهاء عصرهم المرحلةُ الثانية من مراحل نشوء علم التفسير وتطوُّره؛ وهي مرحلة التابعين من تلاميذ الصحابة ﷺ، وكان القرآن الكريم مصدرهم الأوّل للتفسير في تلك الفترة؛ إذ كان يُفسّر بعضَه بعضاً، ثمّ سُنّة النبيّ -ﷺ- والتي وصلت إليهم عن طريق الصحابة، ثمّ ما فسّرَه الصحابة أنفسهم، وما أُخِذَ من أهل الكتاب، وإن لم يجدوا في ذلك كلّه، اجتهدوا برأيهم وبنَظَرهم في كتاب الله ﷻ .

وقد قامت في تلك الحِقبة عدّة مدارس للتفسير في البلاد المفتوحة، والأمصار المختلفة؛ أوُلى هذه المدارس وأشهرها مدرسة مكّة المُكرّمة التي كان على رأسها الصحابيّ عبدالله بن عبّاس ﷺ ، ومن بَعده تلاميذه: سعيد بن جبير، وعِكرمة، وطاووس بن كيسان، ومُجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وثانيها مدرسة المدينة، وأشهر المُفسِّرين من التابعين فيها: أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي، ومحمد بن كعب القرظي، وزيد بن أسلم، وثالثها مدرسة العراق، والتي تتلمذَ المُفسِّرون فيها على يد الصحابيّ عبدالله بن مسعود -ﷺ-، وأشهرهم: مسروق بن الأجدع الكوفيّ، وقتادة بن دعامة السدوسيّ البصريّ، والحسن البصريّ، ومرّة الهمذانيّ، وقد اعتمد المُفسِّرون في هذه المرحلة على التلقّي، والرواية، بالإضافة إلى الاختصاص الذي اتّسمَت به مدرسة التفسير من حيث تبعيّة كلّ واحدة منها لصحابيّ.

٣- التفسير منذ عصر التدوين الى اليوم:

بدأ عصر تدوين التفسير في بداية القرن الثاني الهجريّ مع بَدء تدوين الحديث الشريف؛ إذ كانت تُفرَد للتفسير أبوابٌ خاصّةٌ ضمن كُتب الحديث، وكان التدوين في هذه المرحلة يأخذ شكل التدوين بالإسناد؛ أي بذِكر سَنَد الأحاديث، والأقوال المذكورة، ومع استقلال العلم، وانتشار الكتابة والتدوين، أصبحَت للتفسير كُتبٌ خاصّةٌ مُستقِلّةٌ عن كُتب الحديث، فبدأت هذه الكُتُب تُورد الأقوالَ دون إسنادها إلى أصحابها؛ وهو ما يُطلَق عليه (اختصار الأسانيد)، ويُعَدّ هذا الأمر سلبيّاً فيها، وهذا ما أدّى إلى ورود العديد من الأقوال الموضوعة، وكثرة النّقْل من

الإسرائيليّات، وكان استقلال هذا العلم على أيدي عدد من العلماء، كابن جرير الطبريّ، وابن ماجة، وكان التفسير مُعتمِداً على التفسير بالمَأثور، وفي العصر العبّاسي بدأ التفسير العقليّ؛ أي بالفَهم الشخصيّ، والرأي، والنّظَر، ودخل في ذلك علم اللغة العربيّة، والفِقه، كما دخلت في ذلك النّزْعة العقليّة المَذهبيّة وقد اتّخذ التفسير في العصر الحديث مَنحىً جديداً؛ فانتشرت المَطابع، ونَشَطت حركات التأليف في العلوم الإسلاميّة، وظهرت نزعات تفسيريّة جديدة؛ إذ أثّرَت الأحداث، والوقائع، والاتّجاهات في طريقة التفسير؛ فظهرت النزعة العِلميّة بإدخال النظريّات العِلميّة في تفسير القرآن، إلّا أنّ التفسيرات الحديثة تميّزَت بسهولة العبارة، والوصول إلى شريحة أكبر، ومنها: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، وتفسير المراغي، والتفسير الحديث .

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، ورضي الله عن صحابته أجمعين، ورحم الله عبداً أهدى هديه إلى يوم الدين، وبعد...

١-مفهوم تعريف علم التفسير لغة واصطلاحاً:

- معنى التفسير في اللغة: بأنه الكشف والبيان والإظهار وهو مصدر على وزن تفعيل فعلهُ الماضي رباعي مزيد ، فتقول : فسّرَ، يفسرُ، تفسيراً.

فالتفسير هو التبين مطلقاً ، ومن هنا ندرك أن التفسير في الأصل ليس خاصاً بالقرآن الكريم ، ويؤيد ذلك القرآن نفسه فقد جاء فيه التفسير بمعنى مطلق البيان . قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة الفرقان: ٣٣]، أي بمعنى أحسن بياناً وتفصيلاً بما نضربهُ من الأمثلة وما نسوقه من الأدلة، ولكن لفظ التفسير شاع واشتهر بين الناس بحيث إذا اطلق يكون المراد منه بيان المعنى الذي يقصده القرآن سواء أكان ذلك حقيقة أم مجازاً، إلا ان بعض العلماء يرى ان لفظ التفسير خاص بما أبان عن الحقيقة دون المجاز ، فهذا ضياء الدين الموصلي حينما قال في كتابهِ المثل السائر: ((لقد ذهب بعضهم في الفرق بين التفسير والتأويل إلى شيء غير مرض فقال التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة كتفسير الصراط بالطرق، والتأويل إظهار باطن اللفظ كقوله تعالى "إن ربك لبالمرصاد" فتفسيره من الرصد ، وتأويله: تحذير العباد من تعدي حدود الله ومخالفة أوامره.

- التفسير في الاصطلاح: أما تعريف التفسير اصطلاحاً فقد اختلفت أساليب المفسرين في تعريفه ، فهذا أبو طالب يعرفه فيقول: ((هو بان وضع اللفظ القرآني أما حقيقة أو مجازاً)).

- وعرفه أبو حيان في البحر المحيط: ((بأنه علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها وأحكامها الافرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب)).

- وعرفه الزركشي: بأنه علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والصرف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ، ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ .

- وعرفه الطبرسي: بأنه كشف المراد عن اللفظ المشكل.

والمتأمل في هذه التعاريف يلحظ تعريف الزركشي أدقها تحديداً وأوضحها أسلوباً ، وأيسرها فهماً ، إلا أنه قد أدخل في تعريف التفسير ما ليس من ماهيته كعلم اللغة والنحو ، والتصريف وعلم البيان، وأصول الفقه والقراءات وأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، وهذه كلها تعلم وسائل ينبغي على المفسر اتقانها جيداً والإلمام بها حتى يتمكن من تفسير كتاب الله على الوجه الصحيح ، وعلى ضوء ما سبق نستطيع أن نعرف التفسير تعريفاً أكثر تحديداً فنقول : إنه كشف عن مراد الله في قرآنه بقدر الطاقة البشرية ، وبيان ما انطوت عليه آياته من أسرار دقيقة وحكم نيرة، واخلاق سامية ، ومثل عليا وأحكام شرعية تهدف إلى هداية الافراد واصلاح المجتمعات . وتقييد التعريف بقدر الطاقة البشرية لابد منه، لأن البشر ليس في مقدورهم ان يعرفوا مراد الله تعالى على وجه الحقيقة، وإنما يعرفون مراد الله تعالى بقدر طاقتهم كبشر.

تعريف التأويل لغة واصطلاحاً :-

- **التأويل في اللغة:** مأخوذ من الأول ، وهو الرجوع ، تقول آل الشيء يؤول أولاً ومالاً بمعنى رجع ، والتأويل على مصدر تفعيل من أول يؤول تأويلا ، ومعنى أول الكلام دبره وأوله وتأويله فسره.
- وقال الليث: ((التأويل تفسير الكلام الذي تختلف معانيه)).
- وقال الجوهري: ((التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء)).
- **أما التأويل في الاصطلاح:** فقد اختلفت أساليب العلماء في تعريفه أيضاً ، فهذا البغوي يقول:
- ((التأويل هو صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية غير مخالف للكتاب من طريق الاستنباط)).
- وعرفه الطبرسي : بأنه ((رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر)).
- وقال ابن حزم الظاهري : ((التأويل نقل اللفظ عما اقتضاه ظاهره ، وعما وضع له في اللغة إلى معنى آخر، فإن كان نقله صح ببرهان وكان ناقله واجب الطاعة فهو حق ، وإن كان نقله بخلاف ذلك طرح ولم يلتفت إليه ، وحكم بذلك النقل إنه باطل)).
- وعرفه آخرون بأنه حمل الكلام على معنى غير المعنى الذي يقتضيه الظاهر بموجب دليل اقتضى ان يحمل على ذلك، ويخرج على ظاهره.

وقسم الراغب الاصفهاني التأويل إلى قسمين : تأويل منقاد وتأويل مستكره وعرّف التأويل المنقاد بأنه هو الذي لا يجافي منطق اللغة ، ولا ينأى عن دلالتها.

أما التأويل المستكره فهو يلوى فيه المفسر أو المؤول النص حتى يوافق هواه ويسير مع رغباته ، ويدعم مذاهبه واتجاهاته.

لو دققنا النظر في تعاريف التأويل السابقة لأتضح لنا أن التأويل عند معظم العلماء هو تفسير الآية بمعنى غير المعنى الذي يقتضيه ظاهرها بموجب دليل يقتضى صرف معنى ظاهر اللفظ إلى معنى آخر، وإلا كان التأويل فاسداً ، من أجل هذا فرق بعض العلماء بين التفسير والتأويل فقال الراغب الاصفهاني التفسير أعم من التأويل ، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها ،

وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل وأكثر ما يستعمل في الكتب الالهية . والتفسير يستعمل في الكتب وغيرها.

وبناء على هذا فأن كل تأويل تفسير، وليس كل تفسير تأويلا، ولهذا يقال تفسير القرآن ، ومن تفسيره ظاهر وباطن.

وذهب الماتريدي إلى أن التفسير خاص ببيان اللفظ الذي لا يحتمل إلا وجهاً واحداً بدليل مقطوع به ، والباطن إرجاع اللفظ المحتمل لمعان مختلفة إلى معنى واحد يختاره منها من غير دليل مقطوع به ، فقال: التفسير هو القطع بأن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله بأنه عنى باللفظ هذا ، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي ، وهو المنهى عنه، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله .

ويبدو لي ان الذي حمل القائلين بالفرق بين التأويل والتفسير على الذهاب إلى هذا المذهب هو ورود كلمة التأويل في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة آل عمران: ٧]، فقد ذكر الله في هذه الآية ان من القرآن ما هو محكم، كالآيات التي ارست أصول العقيدة ، فهي مفهومة المعنى قاطعة الدلالة لا لبس في دلالة ألفاظها عليها ولا شبهة .

ومن القرآن ما هو متشابه والآيات المتشابهات أما ألا تكون في مستوى الادراك الإنساني وأما ان لا تكون في مستوى الادراك الانساني كالسمعيات والغيبيات التي اختص الله بعلمها ، فقد جاءت للوقوف عند مدلولاتها القريبة، ويجب التصديق بها ، ومثال على ذلك قول ﷻ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾[سورة الرحمن: ٢٧].

- وقوله ﷻ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة طه: ٥].
- وقوله ﷻ: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الحديد: ٤].

إلى غير ذلك من الآيات التي يصعب على الإنسان ادراك ماهيتها أو يستحيل عليه معرفتها كـــ"معرفة حقيقة الذات الإلهية وآيات قيام الساعة وآيات العلم بالغيب والروح ، والسبب في ذلك لأنها بطبيعتها فوق وسائل الادراك الانساني المحدود

وهذا ما عبر عنه ابن عباس ﷺ بالوجه الرابع من تقسيمه لتفسير القرآن الكريم حيث قال على ما نصه التفسير على أربعة أوجه وهي كالاتي:

١- وجه تعرفه العرب من كلامها.

٢- وجه لا يعذر أحد بجهالته .

٣- وتفسير يعلمه العلماء خاصة.

٤- وتفسير لا يعلمه إلا الله.

أما الآيات المتشابهة التي هي في مستوى الادراك الانساني فقد لحقها التأويل وهو صرف اللفظ عن المعنى الظاهر إلى معنى آخر بدليل يؤيد ذلك ، أو بسبب يقتضي تأويل النص ، ومن الأمثلة على ذلك وهي كالاتي:

قوله ﷻ :﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[سورة المؤمنون: ٩١] . لذلك حذرنا الرسول ﷺ من هؤلاء فقال : ((فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم)) [حديث متفق عليه في صحيح البخاري].، ولأن المتشابه الذي لا يصح الخوض فيه ما كان خارجاً عن طاقة العقل الانساني ومن ذلك ايضاً تأويل اليهود لليد في قوله ﷻ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة المائدة: ٦٤]. بالنعمة لقول العرب لي عند فلان يد أي نعمة ومعروف، ولا يجوز أن تكون اليد ها هنا بمعنى النعمة ، لأنه قال "غلت أيديهم" معارضة عما قالوه فيها، وقد أول علماؤنا اليد بمعنى الغلبة والقهر والحفظ وهو كناية عن القدرة الالهية ، والمعية كناية عن العلم.

وبسبب هذا التأويل الباطل فيما يبدو فرق الاصوليون وبعض علماء التفسير بين التفسير والتأويل وأحاطوا التأويل المقبول لآيات الله بشروط تخرج صاحبها من تبعة هذا الزيغ والانحراف وأهم هذه الشروط ما يأتي :

الأول – أن يكون التأويل موافقاً لوضع اللغة وعرف الاستعمال، وكل تأويل يخرج عن هذا فليس بصحيح.

الثاني- أن يقوم الدليل على أن المراد بذلك اللفظ هو المعنى الذي حمل عليه إذا كان لا يستعمل كثيراً فيه.

الثالث-إذا كان التأويل بالقياس فلا بد أن يكون جلياً لا خفياً ، وقيل لا يجوز التأويل بالقياس أصلاً.

الرابع- إلا يكون المعنى المستنبط من الآية مخالفاً للكتاب والسنة فكل تأويل لا تتوفر فيه هذه الشروط يكون باطلاً والواقع أن العرف السائد بين علماء السلف هو أن التأويل له معنيان ، ويعبر عن ذلك ابن تيمية فيقول : ((أن التأويل في لفظ السلف له معنيان أحدهما تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالفه فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً ، وثانيهما هو نفس المراد بالكلام ، فإذا قيل طلعت الشمس فتأويل هذا نفس طلوعها)).

وهنالك بعض المفسرين سموا تفاسيرهم بأسماء لا تفرقة فيها بين التفسير والتأويل، فالزمخشري سمى تفسيره بـــ"الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، والبيضاوي سمى تفسيره بأنوار التنزيل وأسرار التأويل ، والقاسمي سمى تفسيره محاسن التأويل.

ويتضح من هذا أن لفظي التأويل والتفسير مترادفان وان كلا منهما يكشف عن المعنى المراد لذلك عرف بعضهم التأويل بما عرف به التفسير ، فهذا أبو العباس أحمد بن يحيى حينما سأل عن معنى التـــأويل أجاب : أن التأويل والمعنى والتفسير واحد، وقال ابن فارس في كتابه الصحابي ((معاني العبارات التي يعبر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة : المعنى والتفسير والتأويل ، وهي وان اختلفت فالمقاصد بها متقاربة)).

وعلى هذا المعنى سار كثير من العلماء منذ الصدر الأول إلى عصرنا هذا وخاصة بالنسبة للقرآن الكريم ، فالنفس أميل إلى اعتبار المعنى والتفسير والتأويل شيئاً واحداً وان اختلفت في اللفظ لأنها تعني تفسير القرآن الكريم وكشف ما يحتويه من معان وأحكام.

أن أهمية كل علم ترتبط بأهمية موضوعه، فأهمية التفسير نابعة من القرآن الكريم الذي هو أشرف الموضوعات، وأقدسها لأنه كتاب الله الخالد الذي " أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد" وهو الضياء الذي ينير للإنسانية طريق الحياة الفاضلة، ويرسم لها المنهج السوي في حل ما يعترضها من مشكلات بفضل ما جاء فيه من مبادئ حكيمة وقوانين عادلة ونظم سديدة ، ومثل عليا تبني العقيدة السليمة في العقول وتغرس الاخلاق الحميدة في النفوس، إنه رسالة الحياة المثالية كا شمل ما تكون الحياة، إذ فيه المجالات الفسيحة للنظم التربوية والاجتماعية والسياسية ونظم المعاملات وقواعد العلاقات في شتى صورها على مستوى الفرد، والاسرة والدولة، وبيان علاقتها بغيرها من الدول وصدق الله العظيم حيث يقول :﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الزمر: ٢٨ .

ولقد قال رسول الله ﷺ في وصفه كما روى عن علي ﷺ : ((عليكم بكتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخير ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفضل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى في غيره اضله الله ، هو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الاهواء ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ومن خاصم به أفلح، ومن دعي إليه هدى إلى صراط مستقيم)).

فالعمل بهذا القرآن لا يكون ألا بعد فهم ألفاظه، وشرح آياته ، والوقوف على ما حواه من عقائد وأحكام وعظات، والالمام بمبادئه وأهدافه وهذه الأمور لا يهتدي إليها، ولا يتحقق العلم بها إلا بعلم التفسير ، ولهذا كانت ألفاظ القرآن وآياته وحكمه موضع اهتمام المسلمين منذ الصدر الأول، فالصحابة رضوان الله عليهم مع علو كعبهم في الفصاحة والبلاغة كانوا يسألون الرسول عما يصعب فهمه من آياته وأحكامه، فهذا عدي بن حاتم لما أشكل عليه فهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر من قوله تعالى "﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ

﴿ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ١٨٧﴾ البقرة: ١٨٧، رجع إلى الرسول ﷺ فأهمه أن المراد بهما بياض النهار وسواد الليل. وقد ازدادت الحاجة إلى التفسير عصراً بعد عصر نظراً لضعف المملكة العربية بسبب اختلاط العرب بغيرهم وشيوع اللحن الذي أفسد الفصاحة والبلاغة بين صفوف المثقفين ، فالتفسير له أهمية عظيمة ، ومكانة كريمة بين سائر العلوم لأنه المفتاح لعلوم القرآن وكنوزه الرائعة وأسراره المعجزة . من أجل ذلك نجد معظم المفسرين يتحدثون عن أهميته ، فهذا الراغب الاصفهاني يتحدث في عبارة له عن أهمية التفسير فيقول : ((أن أشرف صناعة يتعاطاها الانسان تفسير القرآن وتأويله)) . وذلك لأن الصناعة إنما تشرف بشرف موضوعاتها ، وهل هناك موضوع أشرف من موضوع كتاب الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة ، ومفتاح كل نهضة وتقدم وازدهار ، ويقول السيوطي بعد أن يشير إلى موضوع التفسير والغرض منه وشدة الحاجة إليه : ((فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث أما من جهة الموضوع فلان موضوعه كلام الله تعالى الذي ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه.

وأما من جهة الغرض ، فلان الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقة التي لا تفنى. وأما من جهة شدة الحاجة فلأن كل كمال ديني ، أو دنيوي ، عاجل أو آجل ، مفتقر إلى العلوم الشرعية ، والمعارف الدينية ، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى.

ويقول الطبرسي : ((علم التفسير هو أجل العلوم قدراً لأنه الموصل إلى فهم مراد الله من كتابه ، ومعرفة أحكام الله في وحيه ، وما فرضه على عباده ، وهذه الغاية كما لا يخفى هي أشرف الغايات ، وأحسن الطرق لنيل السعادات)).

فلو دققنا النظر في هذه الأقوال لا تضحت لنا أهمية التفسير ومكانته الجليلة، ومدى حاجتنا إليه ، لذلك بذل العلماء جهودهم في خدمة كتاب الله منذ الصدر الأول إلى عصرنا هذا أداء للأمانة، وتبليغاً للرسالة، وحرصوا كل الحرص على تفهمه، وطلب تفسيره، فهذا التابعي

الجليل أبو عبد الرحمن السلمي يصف لنا ذلك فيقول : ((حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود ﷺ وغيرهما إنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعلم ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً)) لاشتمالها على العقائد الحقة، والاخلاق السامية والاحكام الشرعية العادلة التي تقود المسلم إلى السعادة في الدارين من اجل ذلك حثنا الله ﷻ في آيات كثيرة على التوجه إلى هذا الكنز النفيس اللامتناهي لفقه آياته وتدبر حكمته ، والاعتبار بأسراره وعظاته، فخاطب نبينا محمداً قائلاً : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ص: ٢٩، ففي هذه الآية وما اشبهها من آيات يأمر سبحانه عباده بفهم كتابه فيحثهم على تدبره، والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بمواعظه، وقد فهم ذلك المفسرون قاطبة فعدوا الكشف عن معاني كلام الله واجباً ، فهذا ابن كثير يعبر عن ذلك في مقدمة تفسيره فيقول: ((فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه ، وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٨٧ ، وقال ايضاً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ آل عمران: ٧٧ ، فذم الله تعالى في هذه الآيات أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم واقبالهم على الدنيا وجعلها واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كلام الله ، فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه ، وتفهمه وتفهيمه.

- وقد ذهب الزمخشري إلى أبعد من هذا فجعل الخوض في تفسير القرآن فرض عين. ولعل ذهاب هذين العالمين إلى هذا المذهب يعتمد على ما في القرآن والسنة من نصوص تدل على الدعوة إلى العناية بتفسير القرآن وكشف معانيه .

- ومما جاء في السنة ما رواه الشيخان عن عثمان بن عفاف ﷺ عن النبيﷺ قال: ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه)) ، كما أن الاشتغال به خير من الاشتغال بصلاة النوافل ، ويؤيد ذلك

ما رواه ابن ماجة في سننه من حديث ابي ذر عن رسول الله ﷺ إنه قال : ((لان تغدو وتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مئة ركعة)).

- ومن ذلك ايضاً قوله ﷺ من حديث ابن عباس ﷺ ((القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه)) ، فالناظر في هذه النصوص يدرك أن تفسير القرآن وفهمه من أجل الاعمال وأفضل العبادات، وأن تعلمه وتعليمه لا يصعب على طالبه، وأنه ذو وجوه فإذا تدبره فقد يفهم منه مقاصد مطوية ووجوهاً من المعاني خفية فينبغي أن يحمله على أحسن معانيه ، وأوضح مقاصده ، وأصح مراميه مما يدل على أن التفسير مطلوب وأنه فرض ولكن على وجه الكفاية لا العين لأن نهضة المسلمين ورقيهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة متوقفة على العمل بكتاب الله ، والعمل بكتاب الله لا يتأتى إلا إذا فهمت نصوصه حق الفهم ، وذلك عن طريق علم التفسير ، وأن السر في نجاح سلفنا الصالح مع قلة العدد وضيق ذات اليد هو توفرهم على دراسة كتاب الله والعمل به على الرغم من ملكاتهم ومواهبهم الفطرية إذن فنحن الآن في أشد الحاجة إلى تفسير كتاب الله والعمل به حتى لا تضعف ملكة البيان ، ولا تضيع خصائص اللغة العربية . وهذا ما أجمع العلماء وما أجمل قول الرسول ﷺ في التحريض على قراءة القرآن وتفهم معانيه : ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده)). وروى عبد الله بن مسعود إنه ﷺ قال : ((إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن هو حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك ونجاة من تبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فأقرأوه فأن الله ﷻ يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول لكم الم حرف ولكن الف ولام وميم ثلاثون حسنة)).

- ومع هذا كله فلا يحل لكل مسلم أن يمارس التفسير إلا إذا كان أهلا له وعالماً به ومتمكناً من أسبابه، ومستكملاً كل مقوماته وشروطه حتى يسلم كلام الله من جهل الجاهلين وضلال المضلين ، لأن الجاهل بذلك يهرف فيه بما لا يعرف فيظل الناس عن سواء السبيل.

- من آجل ذلك ارى ان طلبة الدراسات الإسلامية أولى الناس بحفظ القرآن والقيام بتفسيره ، ونشر مبادئه واحكامه، وأنهم أجدر الناس بالتزامه سلوكاً وعملاً في كل شأن من شؤون الحياة.
- لأنهم هم الذين يقدرون على الرد على كل مبتدع في تفسير الآيات أو مؤول لها على غير معناها المراد، كالمشبهة والمجسمة حيث اتبع الاولون طريقة منحرفة في معالجة النص القرآني ومحاولة تفسيره، فلم يكلفوا انفسهم كما يقتضي الأمر عادة بالرجوع إلى الاصول الشرعية الاخرى والاخرى والقواعد الاصولية التي تجلي حقيقة النص وتبرز معناه الصحيح ، أو تدرأ عن تفسيره كل زيغ وانحراف.

فالمؤولة فسروا بعض الآيات على غير وجهها الصحيح لانحرافهم في المنهج واتباعهم طريقة تعتمد على اقتطاع آية أو جزء من آية عن سياقها الذي يقتضيه تفسيرها، ومن ثم تأويلها بما يتفق ، لذلك فأن التفسير الذي يقوم على هذا المنهج يعد ضلالا وزيفاً .

المحاضرة الخامسة .... بعنوان في أقسام التفسير .....للمدرس المساعد : سرى أحمد السامرائي

إن التفسير المعتد به عند جمهور العلماء سلفاً وخلفاً قسمان:

الأول: التفسير بالمأثور.

الثاني: التفسير بالرأي.

فأما التفسير بالمأثور ، ويسمى التفسير بالرواية : أو التفسير النقلي فهو ما أثر عن النبي ﷺ من قرآن أو سنة أو عن الصحابة سواء أكانوا من أهل البيت أم من غيرهم أو عمن عاصرهم من التابعين.

فعلى هذا يدور التفسير بالمأثور على أنواع وهي:

١- **تفسير القرآن بالقرآن:** فمن أمثلته قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ المعارج: ١٩، فقد فسر بما بعده : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ ﴾ المعارج: ٢٠ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾ الفاتحة: ٧، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ﴾ النساء: ٦٩.

٢- **تفسير القرآن بالسنة النبوية:** فمن أمثلته تفسيره ﷺ لمفاتح الغيب في قوله: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾ الأنعام: ٥٩، مفاتح الغيب خمس : ان الله عنده علم الساعة ، ويُنزل الغيث، ويعلم ما في الارحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت : أن الله عليم خبير.

- ومن ذلك ايضاً ما رواه أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود قال ((لما نزلت هذه الآية : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ ﴾ الأنعام: ٨٢، شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله : وأينا لم يلبس إيمانه بظلم، ليس كما تظنون وإنما هو الشرك ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه : يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم ، لأن السنة النبوية تشرح القرآن وتفسيره، وقد

قال ﷺ ((ألا أنني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من خلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه إلا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا ان يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم ان يقروه، فإن لم يقروه فعليه أن يعاقبهم بمثل قراه)).

-وقال الامام أحمد بن حنبل: ان السنة تفسر الكتاب وتبينه. وهكذا جاءت السنة النبوية تفسيراً للقرآن، وبياناً لما جاء به من أحكام ، ولو أن امرءاً قال لا نأخذ إلا ما وجدناه في القرآن لكان كافراً بأجماع الأمة، وان الاقتصار على القرآن رأي قوم لا خلاق لهم خارجين عن السنة النبوية المطهرة.

٣- **تفسير الصحابة للقرآن**: فمن أمثلة ذلك قوله تعالى﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ الفجر: ١٠، قال : الاوتاد أي الجنود الذين يشدون له أمره ، ويقال كان فرعون يوتد أيديهم وارجلهم على أوتاد من حديد يعلقهم بها.

٤- **تفسير التابعين:** فمن امثلته ما رواه الرضا عن أبيه عبد الله ﷺ في تفسير قوله تعالى : (والمستغفرون بالأسحار)) أي المصلين وقت السحر .

- فالتفسير بالمأثور قديم نشأ منذ عهد النبي ﷺ وكان المفسرون من الصحابة والتابعين يلتزمون به ، ولا يقولون باجتهادهم في آية من الآيات أو كلمة من الكلمات إلا ما اخذوا عن رسول الله ، وما علموه من لغات العرب وثبت عندهم استعماله في أكثر الاحيان، وإلا اجتهدوا.

ومن أصح التفاسير بالمأثور التي تجمع بين أقوال الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ من أهل البيت وغيرهم، هي كالآتي :

- **تفسير جامع البيان في تفسير القرآن:** لابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ.
- **تفسير بحر العلوم :** للسمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣هـ.

- **تفسير الكشف والبيان في تفسير القرآن** : لابي إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧هـ.
- **والتبيان في تفسير القرآن** : للطوسي المتوفى سنة ٤٦٠هـ.
- **معالم التنزيل** : لمحي السنة البغوي المتوفى سنة ٥١٠هـ.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:** لابن عطية الاندلسي المتوفى سنة ٥٦٤هـ.
- **تفسير القرآن العظيم:** لابن كثير المتوفى سنة ٧٤٧هـ.
- **الجواهر الحسان في تفسير القرآن:** للثعالبي الجزائري المتوفى سنة ٩١١هـ.
- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور** : للسيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ .
- **أسباب النزول :** للواحدي علي بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٨هـ.
- **والناسخ والمنسوخ :** لأبي جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل الصفار المرادي المتوفى سنة ٣٣٨هـ.

ان التفسير الأثري المنسوب إلى النبي ﷺ وإلى أصحابه من أهل البيت وغيرهم كعلي وابن عباس وابن مسعود ﷺ والمنسوب كذلك إلى بعض التابعين كمجاهد وقتادة والامامين محمد الباقر وجعفر الصادق ومسروق وسعيد بن جبير والحسن البصري وغيرهم كان مرويا بالإسناد، والطابع الغالب على هذا التفسير هو الصحة، لأنه أما تفسير قرآن بقرآن، أو قرآن بسنة ثبتت صحتها عن الرسول ﷺسنداً ومتناً أو تفسير قرآن بأقوال الصحابة وتابعيهم، لأن الصحابي كان إذا لم يجد تفسيراً بالقرآن الكريم أو السنة المطهرة اجتهد برأيه مستعيناً على ذلك بقوة فهمه للغة العربية وادراكه لا سرارها، ومعرفته لعادات العرب واخلاقهم، وفقهه لأسباب النزول، والمامه بما أحاط بالقرآن من ظروف ومناسبات، ولكن هذا النوع من التفسير قد تأثر بالبيئة التي أحاطت بالمسلمين وخاصة بعد إسلام الكثير من علماء أهل الكتاب كـــ"عبد الله بن سلام وكعب الاحبار ووهب بن منبه وكان هؤلاء إذا سئلوا عن الأنبياء والأمم الغابرة التي ذكرها القرآن بإيجاز لغرض العظة والعبرة، أفاضوا في شرحها كما وردت في التوراة والانجيل وفصلوها بجزئياتها، والنفس تميل دائماً إلى الاستيعاب والاستقصاء من كل ناحية مستندين في ذلك قوله ﷺ : ((بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)).

وقد فهم الصحابة والتابعون ﷺ هذا الحديث فهماً تاماً لهذا ما كانوا يأخذون من أهل الكتاب إلا ما يتفق مع عقيدتهم ولا يتعارض مع القرآن ومراميه، كما إنهم لم يخالفوا قول الرسول ﷺ : ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .

وقد يبدو لبعض الناس أن بين الحديثين شيئاً من التعارض ولكن من يدقق النظر لا يجد أي تعارض بينهما ، لان الأول أباح للصحابة ان يتحدثوا عما وقع لبني إسرائيل من وقائع عجيبة بشرط ان تكون الواقعة صادقة لما فيها من العبرة والعظة وموافقة لمعاني القرآن الكريم، وليس من المعقول أبداً ان يبيح النبي ﷺ رواية المكذوب وهو المعصوم من الكذب.

– وأما الحديث الثاني فالمراد منه التوقف عند كل ما يحدث به أهل الكتاب مما يحتمل الصدق والكذب ، إذ ربما كان الحديث صدقاً فيكذبونه أو كذباً فيصدقونه فيقعون حينئذ في الحرج، وقد أكد الشافعي رحمه الله هذا الفهم فقال : من المعلوم ان النبي ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب فالمعنى حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، أما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث عنه.

– فموقف الصحابة ﷺ من الرجوع إلى أهل الكتاب هو التحري عن الصواب ما استطاعوا ونبذ ما خالف شرعنا لأنهم في حل من تكذيبه ، ولكن، على الرغم من صحة هذا الموقف في اخذ الصحيح من بني إسرائيل فإنه كان البداية في تسرب الإسرائيليات إلى تفسير القرآن الكريم ولو على نطاق ضيق جداً، مما أدى إلى بداية ضعف الثقة في التفسير بالمأثور.